

■ دور الإشارات في عملية الاتصال

د. مخلوف بوكروح

معهد علوم الإعلام والاتصال

جامعة الجزائر

إذا كانت الوظيفة الأساسية للغة هي التعبير عن الأحاسيس والتفاهم بين الناس، فإنها تؤدي بذلك وظيفة اتصالية، فهي تنقل العواطف والأفكار من المتكلم إلى المخاطب. ويعد الاتصال من أهم وظائف اللغة، ويتم بطرق عديدة لتبليغ الأفكار ونقل الأخبار من شخص إلى آخر. وهذا ما يجعل الاتصال يأخذ طابعا أوسعاً من اللغة، لأن اللغة - في الواقع - ما هي إلا طريقة من طرق الاتصال المختلفة، ففي عملية الاتصال الفردي والجماعي، يتم استخدام أدوات ووسائل لغة غير لفظية. وقد كانت هذه اللغة بمختلف أشكالها (رسوم، صور، نقوش، حركات، إيماءات... إلخ) سباقة في مجال الظهور والاستخدام على اللغة اللفظية. وتختلف هذه اللغة بأشكالها المختلفة من حيث مدى قدرتها على التعبير، وحجم الاستخدام، وكذلك من حيث مدى التعقيد. ذلك أن

الثقافة الإنسانية، وهي تخاطبنا تنقل لنا معلومات معقدة بلغات مختلفة، بعض هذه اللغات يأخذ شكلا صوتيا، والبعض الآخر يأخذ شكلا مرئيا.

يتخذ التعبير شكلين أساسيين: النوع الأول فطري، والمقصود به لغة العواطف والانفعالات والأحاسيس، ويتم بواسطة الصراخ والضحك والبكاء واحمرار الوجه، وغير ذلك من المظاهر غير الإرادية. أما النوع الثاني فهو إرادي، ويشمل لغة التفكير التي يتعامل بها الناس في حياتهم. ويتميز هذا النوع من التعبير عن الأول بكونه إراديا مقصودا، وبعدم اقتصره على الحاجات الضرورية للبقاء، إذ يمكن بواسطته أن نعبر عن كل شيء سواء منه الضروري أو الكمالي ماديا أو روحيا، ملموسا أو مجردا. ويشمل التعبير الإرادي نوعين: الأول ما يدرك بالبصر، كالأشارات البحرية والحركات اليدوية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عن خواطرهم، والحركات التي ترفق بها الكلام للتوضيح والشرح. والثاني ما يدرك بالسمع أي الأصوات المركبة والمقاطع والكلمات والجمل(1).

والواقع أن الاهتمام بالإشارة أو الحركة قديم، فقد أولى فلاسفة الإغريق اهتماما خاصا للحركة، إلى الحد الذي جعل بعضهم يقول: «لا وجود إلا للحركة، أما ما عدا ذلك فهو عرض زائل». وقد اعتبر هؤلاء الفلاسفة أن الكون تشكل خلقا عبر حركة مستمرة أو عبر سلسلة من التحولات (الحركات) الجارية التي مرت بها المادة سواء كانت هذه المادة هي الماء أو النار أو الهواء أو المطلق، ومن ثم فقد كانت الحركة بالنسبة لهم هي التعبير الحقيقي عن استمرار الحياة من خلال الصراع(2).

إذا كانت الحركة في جوهرها هي التعبير المباشر المحسوس عن مبدأ الصراع أو الصيرورة أو التحولات، فإنه يمكن بالتالي القول بأن فن التعبير الحركي هو فن التعبير الذي يستخدم الجسد الخارجي لتجسيد سلسلة من

التحولات الروحية والنفسية التي تمر بها شخصية معينة قد تكون شخصية المؤدي نفسه.

أما بخصوص التقنيات الحركية المستعملة، فيميز الخبراء بين نوعين من الحركات: الأولى هي الحركات الاعتيادية التي تستعمل من خلال ممارسة النشاط الحياتي التقليدي، وهي بدورها تنقسم إلى نوعين، الأول يشمل الحركات المجانية أو الخالية من الغرض، والمقصود منها كل الحركات والاشارات المصاحبة أو المساعدة التي يستخدمها المرء أثناء الحديث، أو في لحظات الانفعال، وهي حركات عامة وشخصية في نفس الوقت إذ أنها قد لا تختلف من شعب إلى آخر، ولكنها تتميز ما بين شخص وآخر فلكل شخص حركة خاصة، أو مجموعة من الحركات المتكررة يستخدمها بصفة مستمرة إلى درجة أنها قد تصبح وسيلة لتمييز شخص ما. أما الثاني فيضم الحركات النفعية، وهي حركات متسقة على نمط واحد، رتيبة غير مختصة بشخص معين وتضم الحركات التي تستخدم عادة عند أداء أنشطة معينة مثل تناول الطعام أو الشراب أو المشي أو الكتابة، أو أداء الأعمال المعينة المختلفة، أو عند جماعات معينة مثل الحدادين، النجارين، الصيادين... الخ. أو بين جماعات عرقية وشعوب مختلفة (فالأكل لدى أهل اليابان يختلف عنه عند الأوروبيين مثلاً)، وكذلك بين جماعات طبقية معينة (مثل اختلاف عادات السلوك ما بين الطبقات السفلى والعليا) إلى جانب ذلك هناك تقنيات حركية فنية مجازية، تهدف في حالة العرض المسرحي والرقص إلى تحقيق الادهاش وإلى تحويل الجسد من صورته اليومية إلى صورة افتراضية كشخصية درامية.

النوع الثاني من التقنيات الحركية، يضم تقنيات حركية لا اعتيادية، تهدف إلى منح معلومات، إذ تبدو وكأنها رموز لغوية تدعو المشاهد لقراءتها بوصفها سرداً لحكاية معينة ودون أن تستخدم نفس الحركات التقليدية اليومية(3).

وقد ذهب جاك لوكوك إلى حد اعتبار أن المعرفة تأتي من الحركة، ففي المفهوم الأنثروبولوجي والتشريحي تسبق الحركة اللغة. وقد استنتج لوكوك ذلك من التطبيقات التي كان يجربها مع تلاميذه في مجال فن «الماييم»، ومن ثم كان سعيه إلى إعادتهم إلى الوضع الذي مكنهم من اكتشاف العواطف والمعنى من خلال الإيماءات المعبرة عن العمق الإنساني التي تعتبر بدايات كل أنواع المعرفة وكل أنواع الكلام(4).

اهتمام من نوع آخر يبيده الجاحظ بالإشارة. ينطلق الجاحظ من تصوره للعالم تصورا بيانيا، فيرى أن الكون والطبيعة والحيوان والإنسان عناصر تعبر عن نفسها بأشكال اشارية مختلفة. وقد قسم الجاحظ أنواع البيان إلى خمسة أقسام:

1 - اللفظ: وهو وسيلة من وسائل الكلام المنطوق الذي يعتبره إشارة ودلالة، فضلا عن كونه وسيلة تواصل بين أفراد المجتمع للتعبير عن الأفكار والمشاعر.

2 - الخط: هذه الوسيلة لا تعني عند الجاحظ الكتابة اليدوية، بل أنها تشمل كل ما اصطنعه الإنسان من وسائل خطية تدرك بالعين، سواء كانت بواسطة القلم أو غيره، كالعلامة المنقوشة والمحفورة.

3 - العقد: وهو ضرب خاص من الحساب، وليس كل حساب لأنه يتم بأصابع اليدين. ويقول عنه الجاحظ: «وأما القول في العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط»(5).

4 - النصية: هي إشارة صامتة ومعبرة عن مكنونها بمظهرها الخارجي الذي يفرضي إلى باطنها، فيقول: «وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشييرة بغير اليد»(6) مصدر هذه الرسالة هو الله خالق العالم، أما متلقيها فهو الإنسان الذي يتأمل الكون من حوله يستخلص منه الحكمة الالهية،

يقول: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك، فإذا لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا» (7).

5 - الإشارة: وسيلة بيان عند الجاحظ ويعني بها الإشارة التي يقوم بها الإنسان بواسطة جوارحه، وهو يريد أن يعبر عن مكنون نفسه ومحتوى شعوره، وتنقسم إلى قسمين: الأول تشترك فيه الإشارة مع اللفظ لتساعده وتعينه على مستوى شكله، فتكون بمثابة وسيلة تعبيرية مرتبطة بالكلام، خاضعة له على مستوى معنى الخطاب، ومنفصلة عنه على مستوى الشكل أي أن الانسان حين يقول: - نعم - أو - لا - ويحرك رأسه إيجابا أو سلبا، فإن حركاته هاته تعبر عن نفس المعنى الذي يقوله بواسطة جهاز النطق، ومن ثمة تكون الإشارة تابعة للفظ من حيث المعنى، لكنها منفصلة عن هذا اللفظ من حيث الشكل الذي هو المادة الصوتية التي تدرك عن طريق جهاز السمع، وهي صادرة عن أعضاء لا علاقة لها بجهاز النطق كاليد والعين والرأس، ومتجهة إلى جهاز النظر بدلا من جهاز السمع الذي يتجه إلى الألفاظ والكلمات يقول: «من شأن المتكلمين أن يثيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم» (8). أما النوع الثاني فهو الإشارة المنفصلة تماما عن اللفظ، وانفصالها نابع عن وحداتها المكونة من حركات مختلفة ليست من نفس المادة التي تتكون منها وحدات الكلام، إذ أن هذه الأخيرة صوتية وسمعية، في حين أن الأولى حركية وتدرك بالعين لا بالأذن، أي أنها إلى جانب وظيفتها المساعدة التي تبدو ثانوية، فإن لها وظيفة تواصلية أساسية تستقل بها عن غيرها من وسائل التواصل أو الخطاب، كي تكون لنفسها نظاما خاصا من الأشكال الدالة. وقد عبر الجاحظ عن هذا قائلا: «والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وتغني عن الخط» (9).

لقد أدرك الجاحظ أن الإشارة تشكل لغة شبيهة بلغة الكلام، ولها نظامها الخاص ومنفصلة عن الكلام، لغة قائمة بذاتها، مستقلة استقلالاً تاماً عما يسمى لدى علماء اللغة المعاصرين «اللغة الطبيعية» تستطيع أن تحل محلها في حالات كثيرة(10).

ولتوضيح ذلك يضرب الجاحظ مثالا بالإشارات الصادرة عن الأخرس، فيقول: «وقد يراك الأخرس من الناس -والأخرس أصم- فيعرف ما تقول بما يرى من صورة حركتك، كما يعرف معانيك من إشارتك، ويدعوك ويطلب إليك بصوت، وهو لم يسمع صوتك قط فيقصد إليه، ولكنه يريد تلك الحركة، وتلك الحركة تولد الصوت، أراده هو أم لم يرده. ويضرب فيصيح، وهو لم يقصد الصياح، ولكنه متى أدار لسانه في جوبة الفم بالهواء الذي فيه والنفس الذي يحضره جماع الفم، حدث الصوت، وهذا إنما غايته الحركة فيعرف تلك الحركة... والأخرس يرى الناس يصفقون بأيديهم عند دعاء إنسان أو عند الغضب والحد، فيعرف صورة تلك الحركة لطول تردادها على عينيه، كما يعرف سائر الإشارات، وإذا تعجب ضرب بيديه كما يضربون»(11).

يتبين من هذا القول أن الوحدات المكونة للغة الإشارة هي الصور الصادرة عن الحركات المختلفة، ولها معاني مختلفة ودلالات بحسب اختلاف صور الحركات، وأن الصوت الصادر عن الشخص الذي يفتقر إلى جهاز الكلام النطقي والسماعي، ليس صوتاً، بل هو حركة تخضع للنظام الأساسي الذي يتعامل مع الأخرس والأصم، جاعلاً من هذا الصوت لغة تواصل وخطاب، تنتمي إلى نظام الإشارة، وليس إلى نظام اللفظ. وبهذا فإن الإشارة عند الجاحظ كاللغة تماماً تشكل مخزوناً إدراكياً لدى المتعامل بها، كلما احتاج إلى التعبير عن نفسه استحضر بعض معطيات هذا المخزون(12).

والخلاصة أن الجاحظ حاول أن يجعل من الإشارة لغة طبيعية من نوع ثان، منفصل تمام الانفصال عن اللغة الطبيعية (اللفظية) التي تعتمد على الصوت. وهنا يكمن جوهر الخلاف بينه وبين السيميائيين المعاصرين الذين جعلوا من الإشارة بديلا للغة الكلام، معتبرين بأن جميع أنظمة التواصل لا بد أن تمر عبر اللغة. في حين أن الجاحظ قسمها إلى قسمين: الأول له اتصال باللفظ والثاني مستقل عن اللفظ استقلالاً تاماً. وفي هذه النقطة بالذات يلتقي الجاحظ مع رأي دي سوسير الذي يعتبر أن اللغة ليست سوى مجالا من مجالات اشارية متعددة يجب دراستها برمتها للكشف عن قوانينها والتماثلات والتناقضات التي تنطوي عليها، وبالتالي دعوة إلى دراسة الإشارة بمعزل عن السيطرة اللغوية التي ترى أن الإشارة شعبة من شعب الدراسات اللغوية(13).

وإذا كان معظم الباحثين يتفقون على أن القناة الكلامية تستعمل بشكل رئيسي لنقل المعلومات، في حين القناة الصامتة تستعمل في التعبير عن المواقف الداخلية والشخصية، لكنها في بعض الحالات تعوض - القناة الصامتة - الرسائل الكلامية، وأن الكثير من اتصالات الإنسان تتم بواسطة الايماءات والأوضاع والمسافات المختلفة الناجمة عن حركة الجسم. وبالرغم من ذلك فإن المعلومات التي تقيد الإنسان بلغة الجسم تظل ضئيلة قياساً بالمعلومات الخاصة بالاتصال اللغوي، علماً أن الاتصال من خلال لغة الجسم قديم، ولكن لم تتم دراسته علمياً إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين. هذا إذا ما استثنينا الدراسة الهامة التي قدمها شالز داروين في عام 1872 تحت عنوان: «التعبير عن الانفعالات لدى الإنسان والحيوان»، وقد كان لهذه الدراسة أثر كبير على الباحثين الذين اهتموا بالدراسة الفنية للغة الجسم.

وقد بدأ الاهتمام بدراسة الاتصالات الصامتة على يد علماء اجتماع الذين أصبحوا يدركون قواعد هذه اللغة، ويراقبون التصرفات الاجتماعية في أي

مكان يتفاعل فيه الناس مع بعضهم البعض، وتوصلوا في أبحاثهم إلى التأكيد على أن الشخص الذي يتمكن من معرفة الأفعال الصادرة عن الناس المحيطين به، يستطيع أن يعرف كيف يحسن علاقاته مع الآخرين.

وقد قسم هؤلاء الباحثون التأثير الكلي للرسالة إلى حوالي 7% ناطق (كلمات فقط) و38% صوتي (أي متعلقا بنغمة الصوت، ارتفاعه وانخفاضه، وأصوات أخرى و55% صامت. وقد توصلوا إلى نتائج هامة تتعلق بمقدار الاتصال الصامت الذي يجري بين الناس. وقد تبين بأن الشخص العادي يتحدث فعليا من 10 إلى 11 دقيقة في اليوم، وأن الجملة العادية تحتاج إلى 25 ثانية. كما تبين أن الجزء الكلامي من محادثة وجاهية يساوي أقل من 35% وأن أكثر من 65% من الاتصال يتم بدون كلام(14).

ومن بين النتائج الهامة التي توصلت إليها الدراسات الخاصة بلغة الجسم، تلك المتعلقة بالمجال، فتم تصنيفه كالتالي:

- 1 - المجال الخصوصي: يتراوح من 15 إلى 45 سنتيمترا وهو مجال لا يدخله إلا من كان له صلة عاطفية كالأقارب والأولاد والأزواج.
- 2 - المجال الشخصي: يتراوح بين 46 إلى 122 سنتيمترا، مجال خاص بالمناسبات والاحتفالات الرسمية وغير الرسمية.
- 3 - المجال الاجتماعي: يتراوح من 1.22 إلى 3.6 أمتار، يستعمل هذا المجال عند الوقوف مع الغرباء.
- 4 - المجال العام: يتجاوز 3.6 أمتار، يستخدم في حالة مخاطبة مجموعة من الناس(15).

إن معظم الباحثين يوافقون بأن القناة الكلامية تستعمل بشكل رئيسي لنقل المعلومات، بينما القناة الصامتة تستعمل للتعبير عن المواقف الداخلية

الشخصية، وفي بعض الحالات تعوض الرسائل الكلامية. كما أن الإنسان نادرا ما يدرك أن حركاته وإشاراته وأوضاعه يمكن أن توحى بشيء ما، بينما صوته يحكي شيئا مغايرا تماما. فعندما نقول أن لدينا احساسا داخليا بأن شخصا قد كذب علينا، فالمقصود من أن كلامه وإيماءاته الجسدية لم تتطابق.

وعندما نصف شخصا بأنه مدرك للاحساس، فإننا نعني بذلك أنه قادر على قراءة التلميحات الصامتة للآخرين ومقارنتها بالإيماءات الكلامية، وهذا ما يسميه البعض بوعي المستمعين. فإذا كان المستمعون يجلسون على مقاعدهم وذقونهم إلى أسفل وأيديهم متعارضة على صدورهم، فإن المتحدث الذي يمتلك الادراك الحسي سوف يشعر أن كلامه ليس مفهوما، وعليه أن يبحث عن أسلوب آخر ليتمكن من اكتساب مشاركة المستمعين بشكل جيد، وعلى نحو معاكس، فإن المتحدث مهما يكن إذا كان لا يمتلك قوة الادراك الحسي، فإنه سوف يجد صعوبة في اجراء الاتصال الجيد.

ويرى الخبراء أن النساء يملكن إدراكا حسيا أكثر من الرجال، ولديهن قدرة فطرية على اختبار واكتشاف الاشارات الصامتة، مثلما يملكن الرؤية الدقيقة للتفاصيل الصغيرة، ويظهر الحدس الأنثوي بشكل واضح لدى النساء اللواتي قمن بتربية الأطفال، فخلال السنوات الأولى من حياة الطفل تعتمد الأم بشكل رئيسي على القناة الصامتة للاتصال بالطفل.

ويلعب الاتصال بالعين دورا هاما في إقامة العلاقات بين الناس، فقد يحدث أن يركز بعض المدرسين اتصالهم بالعين على مجموعة قليلة من الطلاب، وهذا يؤثر بدرجة كبيرة على شعور المجموعة التي لا يعيرها المدرس الاهتمام عن طريق الاتصال بالعين، وقد يؤدي ذلك إلى شعور بعض الطلاب بالانتماء للفصل، بينما يشعر البعض الآخر بالانفصال عنه، أو يعتبرون

أنفسهم أقل إثارة للاهتمام، أو حتى فاشلين. وقد ذهب البعض من المهتمين بالاتصال الصامت، إلى ملاحظة قدرة الاتصال بالعين على التأثير في العلاقات بين الأفراد. فإذا كان الشخص (أ) يريد السيطرة على (ب)، فإنه يخلق فيه بشكل ملائم، وقد يقبل (ب) هذا الأمر بحركة تعبر عن الخضوع، أو بالنظر بعيدا، أو قد يتحدى ذلك الشخص ويخلق في (أ) حتى يدفعه إلى النظر بعيدا. ويرى البعض أن العلاقة بين تسلسل الخضوع لنظرة العين والمعيار المستقل للسيطرة هي علاقة عكسية تماما. وبناء على ذلك فإن من ينظر بعيدا أولا هو الأكثر سيطرة. ويرى البعض الآخر أن من يقطع الاتصال بالعين يمكن أن يكون في مكانة عالية، ما لم يعيد النظر مرة أخرى. وقد توصل البعض الآخر إلى أن الحركة البطيئة التي يبديها الشخص ترفع من مكانته (16).

وقد أثبتت الدراسات أن الاشارات الصامتة بعضها فطري، وبعضها منتقل بالوراثة ومكتسب عن طريق التعليم، وأن معاني الكثير من الحركات والايماءات تحدد ثقافيا. كما أن معظم اشارات الاتصال الأساسية هي نفسها في جميع أنحاء العالم، إذ تدل الابتسامة على الفرح، وتدل إشارة حركة الرأس نحو اليمين واليسار على الرفض أو الإنكار، وتدل إشارة انحناء الرأس على الموافقة أو التأكيد. وعندما يحرك شخص ما كتفيه فلتعبير عن جهله أو عدم فهمه لشيء ما.

وإذا كانت اللغة المنطوقة تختلف من ثقافة إلى أخرى، فإن اللغة اليمائية هي الأخرى تختلف، فبينما تكون بعض الايماءات شائعة الاستعمال لدى ثقافة معينة ولها تفسير معين، يمكن أن يكون لها معنى مغاير في ثقافة أخرى.

والخلاصة أن دراسة الاتصال الصامت توفر نظرة أعمق وأعم للإنسان،

تمكنه من إقامة إتصال مع الآخرين. بينما يؤدي عدم الفهم إلى صعوبة إجراء الاتصال. ويبقى السبيل الوحيد لتحقيق ذلك، هو الملاحظة الدقيقة لتصرفات الناس، والبحث في خصوصيات الاتصال الصامت، ذلك أن اكتساب المعرفة والمهارات في هذا المجال تجعل كل مواجهة مع شخص آخر تجربة ممتعة.

الهوامش:

- (1) - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط4، 1993، ص ص 74-75.
- (2) - صالح سعد، ميتافيزيقا الحركة، القاهرة، مكتبة الشباب، الهيئة العامة لقصر الثقافة، 1995، ص 24.
- (3) - المرجع نفسه، ص ص 26-27.
- (4) - أنتون فروست ووالف يارو، الارتجال في الدراما، ترجمة ماري انوار نصيف، القاهرة، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون 1994، ص 87.
- (5) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 80.
- (6) - المرجع نفسه، ص 81.
- (7) - المرجع نفسه، ص 82.
- (8) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 176.
- (9) - المرجع نفسه، ص 178.
- (10) - ابريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، الدار البيضاء، دار الثقافة، ص 125.
- (11) - الجاحظ، كتاب الحيوان، ج 4، ص ص 400-401.

- (12) - ادريس بلمليح، المرجع السابق، ص 127.
- (13) - Encyclopedie des sciences du langage, p. 120.
- (14) - الن بيز، لغة الجسم، ترجمة هاني غاوي، عمان، المطابع المركزية، 1992، ص 6.
- (15) - المرجع نفسه، ص 7.
- (16) - كيث جونستون، الارتجال والمسرح، ترجمة عبد الوهاب محمد خضر، القاهرة، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون 1994، ص 72.